

ورع ارملة

الياس اقرب

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته
بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء
كانت إلكترونية أو ورقية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو
خلاف ذلك إلا بموافقة خطية من المؤلف مقدما



تناهت أصوات النواقيس ترتفع ببطء ويتداخل بعضها البعض في سمفونية عتيقة تذكر المؤمنين بأوقات ذكر أو صلاة... فتحت عينيها وتمطّلت بالفراش وهي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال فوق سرير رفع عن الأرض بأعمدة نحاسية عتيقة ارتفعت إلى أن قاربت السقف وشكّلت قبة انسدلت عليها حجب شفافة فوقها ستائر تظلل النائم فوق السرير، ما إن يغلقها حتى يصير منعزلاً عن باقي الغرفة... السرير يتّوسط الحائط حوله منضدان من خشب الأبنوس المنقوش.. على الجانب المقابل صوان يقابلها مكتب بين نافذتين طويلتين تفضيان لشرفة... للغرفة، المغلفة بورق مورد، تصميم القصور أو لعله قصر... قامت بتناقل من مكانها.. رفعت ستائر السرير ثم توجهت لإحدى النافذتين جرت عنها الستارة... لاحت أصوات المدينة تلمع منافسة النجوم التي بدأت بالظهور على صفحة السماء... من بعيد تراءت قبة عظيمة البناء بديعة الصنع تتلألأً حولها الأضواء وتشع كهالة... المدينة-الدولة المقدسة تنبعسّط أمامها... التل العتيق الذي تهوى إليه أفئدة المؤمنين بالخلاص... أسدلت الستار من جديد وجلست فوق كرسي المكتب تتأمل في فراشها.. سرير غير مرتب تحيط بجوانبه ستائر محملية حمراء.. ذكرها المشهد بلوحة معينة صادفتها قبل أيام في زيارتها لمتحف بحاضرة التلال السبع... دارت بجسدها نحو المكتب وأشعلت حاسبها الفضي تبحث بين بعض الصور الملقطة إلى أن وجدت اللوحة المنشودة.. تلات أشخاص باللوحة.. تلات ملامح.. تلات مصائر... طالعت السرير بأغطيته البيضاء الغير مرتبة وستائره الحمراء المرفوعة كأنها ستائر تعلن بداية مسرحية إلا أنها مسرحية تراجيدية دموية... فوق السرير رجل يظهر جذعه العاري... صدر مرسوم وأذرع قوية صلبة هي لرجل فحل يحق له أن يفتخّر بفحولته... لكن هذا الجذع الصلب الرجولي متصل، عن طريق رقبة، برأس لها لحية غير مشذبة كشعر الرأس الواضح بعضه.. هذه الرأس على وشك الانفصال عن جسدها... وجه جزع هو من يخبر هذه المأساة... فم مفتوح على وشك طلب الصفح أو على وشك طلب النجدة... ملامح تغضّت كأنها شاخت في لحظة ارتسم كل خط منها بجهة وحفر مكانه كخندق جف عنه الماء... عينان جزعتان تملّكتها الخوف.. تملّكتهما الصدمة.. تملّكتهما الدهشة... ارتفع بؤبؤهما يستجديان... ملامح مفروعة لوجه رأى الموت.. ملامح مندهشة لوجه رأى الموت بغتة... ملامح مصدومة لوجه رأى الموت على يد امرأة... هذه المرأة تمسك بسيف يحزم رقبة الرجل... امرأة امترج جمالها بهالة من القوة تحيط بها... على ملامحها الشابة الفضول والاشمئزاز في نفس الوقت... يدان ثابتان.. إحداهما تمسك الشعر والأخر تحزم العنق بالسيف اللامع... عنق انفجرت منه الدماء وتطايرت على شراشف السرير الناصعة البياض... على



جانب المرأة عجوز انحني ظهرها... تحمل ثوبا وعلى أهبة الاستعداد لتلقي هذه الرأس بعد سقوطها.. في نظراتها الشر.. الاستمتع والحدق باد على محياتها الكثير التعرجات... كأنها.. مسرورة لهذا الحدث وتنظر اكتماله على يد حاملة السيف المنهمكة في عملها

كادت تسمع خوار حنجرة الرجل والروح تغادرها... تراءت لها أقدامه وهي في النزاع الأخير تصارع بكل ما بقي فيها من قوة... ضربات قلبه المرتفعة والمتسرعة فالضعف فالقليلة ثم فالصامتة... أحسست بيد المرأة الباردة تحز الرقبة كقطعة لحم... سمعت همسات العجوز وتنفسها المضطرب... عاشت في اللوحة ومضت بها ذاكرتها المنهكة إلى الماضي.. إلى ماضٍ لو... أخبرت شخصاً أنها عاشته لاتهمها بالخبيل والجنون

يا شعب الرب.. يا أيها الأبناء البررة... أيها القاطنون بجوار الهيكل... يا من يعيشون " بالجبال... اسمعوا لكلامي وانقلوه لأهاليك... إن جيوش البابلي الظالم قادمة.. بعد أن رفضتهم مشاركته في حربه ضد ملك فارس فها هو قام عليكم.. لقد بعث جنوداً لا قبل لنا بهم وعتاداً لا نملك ربعة... بكل إقليم حلواً خرج رؤساؤه يطلبون السلام والعفو ليتجاوز عنهم ملك البلاد.. حيثما حل الجنود يهدون إليهم الأبقار والأغنام.. بكل مكان وضعوا فيه أقدامهم فإن آلية البلاد تهشم ويعلو صنم واحد هو صنم الملك البابلي الذي أعلن نفسه إليها فوق الأرض وأراد منافسة الرب المبارك إلينا... يا شعب الرب فروا إلى الجبال وحصنوا مدنكم وقرابكم... اجمعوا حنطلكم وادفنوا مدخراتكم إن طبول الحرب ستترعرع... يا من كتب عليهم الشتات والتموا أخيراً ببلاد الرب بلاد آبائكم فروا للحصون ورابطوا بالطرق حتى نستعد "للغاشم إذا ما حل علينا.. الرب إلينا لن يترکنا"

انتشر كلام الرجل الراكب على فرس كالنار في الهشيم وسرى بين النبلاء والرعاة ... الكل أجهل... يتذكرون قبل سنين حينما بعث ملك بابل في طلب العون منهم ومن جيرانهم حتى يتغلب على عدو له... تذكروا كيف طردوا رسوله واستهزأوا به... ارتعدت فرائضهم وهم يسمعون كم من الحصون دمرت... خشوا على أنفسهم ويلات حرب لن يقدروا عليها كما لم يقدر عليهم جيرانهم ممن خرجوا طالبين الصفح ورافعين رايات الاستسلام مفضلين عبادة إله جديد وهم أحياه على الموت وهم يدينون بدين آبائهم... ولولت النساء واستعد الرجال لمقابلة العدو بعد أن جاءت رسالة من كاهن الرب تأمرهم بالاستعداد كما أمرهم بالصوم والابتهاج للرب... لبس الكهنة والورعون المسوح كما سجد أمام مذبح الرب الأطفال خاضعين متذليلين... صرخ الشعب جملة للرب بألا يتخلى عنهم ولا يجعلهم عبيداً للوثني.. ألا تسبى



نساؤهم وألا يذبح أطفالهم.. حثوا الرماد على رؤوسهم وارتفاع دخان قرابين الرب... كلهم قلب
... واحد لعل الرب يفتقد شعبه

على مقربة من بلاد يهودا، انتصبت خيام الجنود وكثير لغطتهم بالوادي... بالخيمة المركزية،
كان القائد اليافانا يمشي ويحييء يزفر نفسا حارا بعد أن سمع أن شعب بني إسرائيل تأهب
للمقاومة والمدافعة عن أرضه وإلهه بأن سدوا منافذ الجبال. نادى القواد والرؤساء ممن
أذعنوا له واستسلموا

" من يكون هذا الشعب الذي سولت له نفسه أن يقاومني ؟ من
يكونون ؟ ما مدنهم ؟ ما قوتهم وعتادهم ؟ كيف استخفوا بنا من دون كل ساكني أرض المشرق
ولم يخرجوا لطلب الصفح ورفع رايات الاستسلام ؟

سؤال وهو يستشيط غضبا... قام شيخ من رؤساء الأقوام المهزومة وقال

أيأذن لي القائد بالكلام ؟" استرسل بعدها دون أن يتلقى جوابا، هامت عيناه كأنما تريان "الجبال خلف ثوب الخيمة الحريري: "الحق أقول لك وأخبرك بما سمعت عن أسلامي وما رأيت بعيوني.. إن هؤلاء القوم الساكنين بالجبال هم من نسل الكلدانين إن حياتهم ملحمة وأيامهم تستحق أن تنشد على مدى الدهور... استقروا بادئ ذي بدأ ما بين النهرين بعد أن رفضوا واستغنووا على آلهة الكلد أسلافهم... احتقروا آلهة أسلافهم ورغبوا عن عبادتها ليسجدوا لإله واحد في السماء فنفوا أنفسهم لكتناعن ولما عم القحط والجوع أمرهم إلههم بالنزول إلى بلاد آمون... مصر.. أربع قرون تكاثر فيها نسلهم وتضاعف عقبهم بأرض النيل حتى صار من الصعب إحصاؤهم إلا أن جاء فرعون من الفراعنة فاستعبدتهم وقسم ظهورهم بالأشغال الشاقة كما كسر عزتهم بالاحتقار والصخرة.. بنوا معابد من لين وطين... صرخ هذا الشعب إلى ربه وبكي الصبية والعجائز حتى سمع ربهم بكاءهم وأنزل الضريات على مصر وأهلها... سلط عليهم إله إسرائيل لعنات لا قبل لأمون ورع بها فخاف المصريون وسرحوا شعب الرب ليتخلصوا من لعنات إلههم الذي لا يُرى.. مضوا حتى وصلوا للبحر الأحمر وبذراع قوية ويد ممدودة قسم ربهم البحر قسمين ومشوا وسطه كأنه طريق معبدة... إلههم إله معجزات وقوى... عبروا البحر دون دراية أن شعب المصريين يتعقبهم لينتقم... عندما رأى شعب إسرائيل غبار مركباتهم وشراارات أعينهم ولولت النساء وتضرع الرجال... هكذا سمع الرب بكاء شعبه من جديد فأطبق البحر على أبناء إيزيس وأنهى نسلهم ليجعلهم عبرة وليشكره شعبه جيلا بعد جيل ويحكوا قصة خروجهم من مصر لأبنائهم.. بسيناء من عليهم



إلههم فرزقهم أكلا من السماء وفجر لهم عيونا كثيرة ترويهم... حيثما دخلوا يهلكون باسم إلههم فهم فاتحون دون قوس أو سيف... لم يتخلى ربهم عنهم إلا حين تخلوا عنه.. والحق يقال إنهم أظهروا الجحود أمام كرمه وأبانوا عن الكفر أمام عطفه... في كل مرة يتذكرون إلههم فهو يسلّمهم لعدالة الأرض ويجعل الشعوب تستضعفهم وتكسر شوكتهم فيعودون نحوه كأبناء يشتكون لوالدهم... وفي كل مرة كان ينقدهم.. إلههم يبغض الآثام والذنوب، يحب المتذللين من شعبه لذلك فهو يختبرهم في كل حين ليعودوا نحوه كلما قل بخور قرابينهم وخرست ألسنتهم عن التهليل باسمه... لقد حذوا عن طريق ربهم من سنين لكنهم الآن وقد استقاموا فقد لم شملهم ووحد كلمتهم بمعبده في مدينة النور حيث يقيمون أقدسas الرب ويضحون باسمه... إن كان لهذا الشعب إثم وخطيئة مع ربهم فلنصلع ونحاربهم لأننا سننتصر ونستعبدهم، لكن إن لم يكن لهم إمام إلههم فلا قبل لنا بمحاربة إله أطبق البحر "على المصريين... سنكون عارا بين الأمم

فرغ العجوز من كلامه وبدل أن يجد الآذان الصاغية فقد التفت ليرى الغضب يتطاير من عيني اليفانا: "كيف لنا أن نخاف من شعب لا يدري أمور الحرب ولا يعلم تدبيرها... أقسام لألوان الجبال بدمائهم وأجعل جثتهم منتشرة على السهول"

ارتفعت الأصوات مؤيدة

لكلام القائد وعزموا على مقاتلة بني إسرائيل.

أيها العجوز إنما أنت تخدعنا بكلامك الكثير وعباراتك المسمومة.. ستري أن شعب إسرائيل "يركع تحت قدمي الإله الوحيد والأوحد في الأرض وفي السماء ملك الآشوريين العظيم.. سنسيقك لهؤلاء الذين دافعت عنهم لتبقى معهم وحين ندخل فاتحين منتصرين ستهلك بسيفي لتعلم أنني أنا القائد اليفانا وتخسر ساقطا بين موتى إسرائيل الذين مجدهم ومدحث "إلههم أماننا"

أمر اليفانا عبيده فوثقوا العجوز وساقوه إلى حتفه مصفر الوجه مرتعد الفرائض... ساروا به في الصحراء إلى أن وصلوا الجبال فانحازوا وربطوه بشجرة ثم عادوا

نزل أحد الحراس بالجبل ففك وثاقه وساقه لجبرهم الذي أقامه في وسط الشعب ليخبرهم ما وقع... حتى العجوز وحكي فخر الشعب ساجدا متضرعا لـ"إلههم" "إننا متذللون فراعنا... انظر يا إلهنا وإله آبائنا لعتوهم وانظر لتذلّلنا... لا تغفل عنا بحرمة القديسين وارحمنا برحمتك يا من نجى آباءنا من استعباد فرعون... إننا متوكلون عليك وهم متوكلون على أنفسهم فلا تذرنا



ونحن الضعفاء" صلى الشعب وبكوا وتضرعوا لربهم في حين كان اليفانا يزحف بعسكره مقتريا من الجبال... جاء وقد أعد العدة والعتاد.. جنود قدموا من أركان الأرض تقاد الشمس تختفي خلفهم.. أقدامهم حركت صخور الجبال وأصواتهم مزقت الصمت... كلهم متأهبين لمقاتلة شعب الرب الذي اختار إليها واحدا بدل مئات الآلهة... من مدینتهم رأى بنو إسرائيل الجنود وقد أحاطوا بالجبال من كل أركانها.. خروا على الأرض من جديد وحثوا الرماد على رؤوسهم مبتلهين متضرعين متذللين لعل الرب يشفق من حالهم... ويحدث أمرا... قام كل منهم وحمل سلاحه ثم رابضوا بمضائق الجبال حارسين ليل نهار

مضى اليفانا يتطلع ويستكشف الفجاج والمضايق فوجد عين ماء لا تنضب تروي أهل المدينة المتحصنة بالجبال فقطعها وترك بعض الجنود يحرسونها... لما عاد وجد بعضا من القواد الذي أعلنوا له الطاعة والخضوع فشاروا عليه مشورة جعلت ابتسامة المكر ترسم على وجهه.. "أيها القائد العظيم إن هذا الشعب لن يستسلم بسهولة ولا قبل لهم بالحرب فهو ليسوا بشعب محارب.. إن الجبال تحصنهم والسهول تصعب الدخول لمدینتهم... لتظفر بهم فاقطع كل العيون والينابيع التي منها يستقون.. أذلهم بالعطش ونحن سنرسل بعضا من جنودنا على رؤوس الجبال ليمنعوا كل رجل من المرور حتى لا يجلب مؤونة لأهله فإذا ما "يهلكون جوعا وعطشا وإنما يسلمون المدينة ويسجدون للملك الإله

بعد عشرين يوما من قطع المياه على المدينة، جفت الينابيع وتشققت حيطان الآبار، فرغت الأحواض وبدأ العطش يستولي على الناس بعد أن صاروا يسقون بمقدار محدد... هلك من الصبيان عدد ومن بقي انهار على الطرق لا يقدر على الوقوف من شدة الضعف.. حينها اجتمع القوم على حبرهم ولاموه بعد أن كانوا يؤيدوه وعزوا ضعفهم إلى قلة حيلته وعدم تبصره "يحكم الرب بيننا وبينكم لو أنك رضيت بأن تسلم المدينة لما وقعنا في هذا الشر... لأن نسبح للرب ونحن أحباء خير من ملاقاته منكسرين والعار يجلل رؤوسنا بعد أن نشاهد نساءنا تُستحيي وأبناءنا تذبح... باعنا الله إلى أيدي الآشوريين.. يا ويلنا ويا قرحتنا.. سلم المدينة .. للعدو ولا تركنا نهلك بالعطش فخير لنا السيف

أظلمت الدنيا في أعينهم واقشعرت أبدانهم... رثت النساء ومن رثوهم أحباء وبكي الرجال أقاربهم وهم بينهم وقوف... عم الحزن وارتفت الأكف من جديد تتضرع وتبكي... "نحن مخطئون يا رب إبراهيم... عاقبنا ولا تسلمنا للعدو... رضينا بعقابك لكن لا تجعلنا ذليلين .. لغيرك.. لا تسلمنا نحن من نعبدك لشعب لا يعرفك لكيلا يستهزؤوا بنا ويسألونا أين إلهكم



فاضت دموع الحبر وبكي معهم ثم عزاهم بأن قال لهم: " قوموا يا إخوتي وكفوا عن السوداوية لننتظر هذه الأيام الخمسة لعل الرب يكف غضبه ويمجد اسمه .. فإذا انقضت الأيام ولم " يحدث شيء سلمنا المدينة وأنفسنا

قال كلامه وفرق الرجال بين حرس على طول سور المدينة أو على أبراجها في حين مضت .. النساء والأطفال لحال سبيلهم .. غرقت المدينة في الصمت الحزين الذليل

من بين النساء العائدات لبيوتها كانت أرملة اسمها يهوديت ... أرملة منذ ثلاث سنين ونصف .. هلك زوجها ودفن بالمدينة المحصنة بعد أن قتله الحر أيام الحصاد ... منذ وفاة بعلها وهي تصوم أيام السنة ما عدا تلك المقدسة .. نذرت نفسها للرب ولم تزل المسوح من تحت ثياب الحزن التي لم تزلها ... زادتها مسحة التقوى جمالاً وثياب الحزن إغراء .. جمالها يقارن بجمال العذارى وهي الأرملة التي ترك لها زوجها ما يغنىها عن باقي الناس طيلة عمرها، فلها من الخدم والحشم ما يماثله من الماشية التي ترعى كالأراضيها الخصبة ... رغم جمالها الأخاذ وعيشها دون ذكر تستند عليه فإن أحداً لم يشر لها بسوء أبداً لأنها امرأة صلاح وتقوى صارمة لا تقبل المزاح ... لما سمعت كلام الحبر مضت لبيتها إلا أنها عادت من منتصف الطريق وسارت نحو شيخين من شيوخ المدينة وجدتهما مع الحبر ...

" اسمعني يا حكماء المدينة، إن الكلام الذي نطق به الحبر اليوم ليس بالصائب ولا بالمقبول .. كيف لكم أن تحددوا أجلاً محدداً لرحمة ربنا ... أ وتخبرون رب؟ ... إن كلامكم إنما هو جالب للسخط وليس الرحمة ... أو تضعون الإله ندا لكم حتى تحاولوا فهم مقاصده وتضريون موعداً لرحمته .. إن لم نكن نحن البشر المخلوقات الآثمة نستطيع معرفة دواليل أنفس بشر مثلكنا .. لا نعرف إلا ما يطلعوننا به ولا سبيل لقراءة مكنونات نفسم ولا استكشاف دواخلها كيف لنا أن نجعل ربنا، خالق البشر، في هذه المنزلة ونخمن ما يريد بل ونختبره ونضرب موعداً لرحمته ... غضب ربليس كغضب الإنسان ولا استطاعة لنا بمعرفة تدبيره وحكمته .. فصلوا للرب واتقوا شره الذي سيجلبه كلامكم هذا .. صلوا بتواضع فحتى لو لم يمد لنا رب العون خلال هذه الأيام الخمس فهو بقدر على جعلنا صامدين أياماً أكثر وقدر كذلك على تسليمنا للعدو في أي وقت أراد .. لنصل خاسعين باكين كما اضطربت قلوبنا بتكبرهم .. إن عاقب رب آباءنا فيما مضى فلإنهم تركوه ومضوا عنه لعبادة آلهة مزيفة أما نحن فلم نعرف ربنا غيره وبهذا سنسسلم من سيف العدو ... ابتهلوا للرب القادر على الانتقام



لشعبه وسفك دماء عدوه.. إننا نحن أبناء المدينة الممحونة إن استسلمنا فكل بلاد إسرائيل ستنهار ومعبد الرب في أورشليم سيخرقه الوثنيون.. إن سلمنا أنفسنا فآثام شعبنا ستتقل رقابنا حتى لو كتب لنا العيش فالعار هو ما سيرافقنا أبداً الدهر.. أيها الشيوخ إنكم صوت الرب في الشعب فعزوهم وذكروهم بابتلاءات الآباء الأوائل.. أخبروهم أن من صبر لاختبار الرب فهو مبارك ومن لم يقبل الابتلاء كان الهاك نصيبه... إن الرب لا يعذبنا بل هو اختبار منه لنا ". فاصبروا على الاختبار.. اصبروا تناولوا وإلا فالويل لشعب الرب من غضبه

كان صوت يهوديت صارماً جافاً واعظاً مرشداً فتقواها شدت عضدها وإيمانها آزرها ووهد كلماتها هيبة نزلت كالسكينة على شيخ المدينة فباركها الخبر وقال " لا عيب في كلامتك يا بنية الحق كله معك.. صلي من أجلنا أيتها القدس... صلي من أجل الشعب لعل السماء ". تبكي معنا وتنزل ماءاً يروي عطشنا

كما اعترفت بصحة كلامي وبأنه من الرب آت فاعلموا أنني عزمت النية على أمر هداني له " الرب وسيظل هذا الأمر حكاية في بني إسرائيل جيلاً بعد جيل... سيروا معي هذه الليلة إلى أسوار المدينة سأمضي أنا ووصيفتي.. لا تسألو ما الأمر الذي اعترضت ولا تبحثوا فيه فقط ". صلوا من أجلي ومن أجل أن يتفقد الرب شعبه

" ليكن الرب معك ول يجعلك أداة انتقام تحيي مجده "

كانت ساعة تقديم بخور بمعبد أورشليم حين خرت " يهوديت " بمعبدها وقد لبست مسوحها وحثت الرماد على رأسها وهي تصرخ: " أيها الرب إله آبائي، يا من عاقب قوماً بسبب تدنيسهم عذراء.. أيها الرب يا من جعل نساء العدو غنية وبناتهم سبايا لأولئك الذين غاروا على حرماته ودافعوا عنها.. أتوسل إليك أيها الرب أنا الأرملة أن تعيني.. إن الماضي من صنعك وكذلك الحاضر والمستقبل، فما صار إنما هو بأمرك وما يصير بتطهير ولا سيصير فهو بمشيئةك.. ما أردته كان فكل طرلك مهيئة وأحكامك عادلة... إن الآشوريين اعتدوا بقوتهم وأعدادهم الهائلة... لقد عولوا على الرمح والسيف... وضعوا أملهم في الدرع والرماح والتروس لم يعلموا أنك أنت الرب كاسر شوكة المغاربة... انظر إلى تكبرهم وأنزل غضبك عليهم كما أنزلته على المصريين الذين اعتدوا بمرابكthem ولحقوا بآبائنا فأخرست أصواتهم وأطبقت البحر عليهم... بارك يد الأرملة حتى تتحقق ما في نفسها... انفخ في صوري لأوقعه في الفخ... اجعل عذوبة لساني تفرق بين الرئيس ومرؤوسه بين العبد وسيده بين القائد وجنوده... اجعل يا رب إسرائيل هلاكه على يدي امرأة.. لأن القوة ليست في العدة ولا العتاد بل القوة فيك يا رب



المتواضعين وإله الضعفاء... ارفع ذراعك يا إله إسرائيل وأنزل غضبك على من يريدون تدنيس
بيت الرب واستعباد شعبه... يا خالق السماوات والأرض والماء اسمع صلاتي أنا الذليلة
الخاضعة إليك.. اذكر ميثاقك وعهده مع بني إسرائيل واجعل الشعوب تعلم أنك أنت الأول
"والآخر"

فرغت الأرملة من صلاتها فقامت ونادت وصيفتها... نزلتا لغرفتها، المتشحة بالحزن
كصحابتها، أزالت عنها مسحها وثوب حزنها... غطست جسدها في الماء واستحمت كأنها
عروس سترف لعريسها أو قريان يستعد أن يضحي بنفسه لإله.. كعروس النيل وهي تتطيب
بالعطور لتغرق، تطيبت يهوديت بزيوت عطرة وارتدت ملابس فرجهما، التي تركت بعد وفاة
بعلها، كما انتعلت حذاء وتزينت بخلالن وأسوار، أقراط وخواتم.. زينت رأسها بتاج بعد أن
فرقت شعرها ثم ارتدت حزامها.. نزلت السكينة عليها فزادتها بهاء.. حملت الوصيفة مؤونة
من الزاد القليل والمسموح لبنت إسرائيل بأكله ثم مضتها نحو باب المدينة... كان شيخ المدينة
في انتظارهما.. بهتوا لما رأوا الأرملة وقد أزالت ملابس حزنها.. كان جمالها مغرياً ورهيباً.. به
مسحة من النور الإلهي... جمال امرأة تحمل مصير شعب على كتفيها... باركوهَا ودعوا من
أجلها ثم أمروا الحراس أن يفتحوا للمرأتين الباب وهم يرددون: "نصلِّي لإله آبائنا بأن يمنحك
"نعمَة وَيُؤيدَ رأيك بقوته لتكوني فخر أورشليم ويكون اسمك مع الأمهات القديسات. آمين

تبعها الحراس بنظراتهم وهي تنزل من المدينة المحسنة نحو الوادي.. شيعوها بنظراتهم
ودعواتهم إلى أن اختفت في الظلام الذي آذن بالانتهاء وانجلت الصبح مع وصلوها لمعسكر
الآشوريين فبدت كإلهة نزلت من السماء تتبعها كاهنتها المقوسة الظهر...
" من أي البلاد أنت ولأين أنت ذاهبة؟ من تكونين أيتها الغريبة؟

سؤال حراس المعسكر وقد شدتهم بجمالها ورقتها

إني عبرانية من بنات إسرائيل لكنني فررت منهم بعد أن تبين لي ضعفهم وتأكدت من " انهزامهم.. أريد لقاء القائد اليفانا لأخبره بأسرار المدينة المحسنة ومن أي الفجاج يسلك حتى
يياوغتهم ويظفر بهم دون أن يهدر دم رجل واحد من رجاله... جئت فارة من شعبي لأحظى
"بالأمان عندكم

حسنا فعلت.. لا تخشي شيئاً وما عليك إلا أن تعيني هذا الكلام أمام القائد اليفانا فهو "
"سيحسن إليك... سنبعث معنا رجالاً ليوصلوك إلى خيمة القائد



مضت الأرملة ووصيفتها بالمعسكر محاطتان بالغفر وقد سبقت كلماتها خطواتها في المعسكر فالتم حولها العساكر وكلهم مندهشون بجمالها متهامسين وصارخين " لأجل هذا الجمال نحارب العبرانيين لنظفر ببناتهم" ... وقفت يهوديت أمام الخيمة المنسوجة من الحرير والقطيفة والمزينة بالجواهر والأحجار الكريمة حيث القائد يرتاح.. لما سمع بقدومها قام من مكانه وخرج لمقابلتها.. على عتبة الخيمة الحمراء حيث المشاعل الفضية التي لم ينقطع دخانها بعد وقف بقامته الطويلة كأنه نحت يجسد أحد الآلهة... أحاط به مستشاروه ولم رأته يهوديت انحنىت وسجدت فوق الأرض قبل أن ينهضها العبيد بأمر سيدهم.

لا تخشى شيئاً يا امرأة.. لتطب نفسك.. تشجعي وأفصحي بما لديك فأنا لم أضر قط بشخص " بصف ملك الآشوريين.. لولا أن شعبك احترقه وقرر العصيان وشق ثوب الطاعة لما كنت بهذه الشدة والقسوة.. الآن تحدي وأخبريني ما سبب فرارك من شعبك.. قيل لي أنك تبغين " النجدة وأتيت لإنقاذ نفسك.. قري عينا فأنت هنا بأمان هذه الليلة والليالي التي تليها

كان يكلمها برقة ولطف ما تظنهما صادرتان عن قائد عنيف مثله إلا أن اليهودية وقعت في قلبه وأسرها جماله.

فإذا اتبعت أقولها يتم لك النصر... مبارك ملك الآشوريين، ملك الأرض كلها.. لتحي قوته المتجلية فيك لأنه بعثك لتؤدب كل الأحياء.. ليسوا فقط البشر من يخدموه بفضلك بل حتى حيوانات الفلاة انصباعت له بأمرك وبذكائك وحسن تدبيرك المشهور بكل الأقاليم.. سمعنا عنك وعن بطولتك أيها المحارب... وصلنا ما باستطاعتك عمله في الحروب.. إن الشيخ الذي تركته بالوادي حكى لنا ما أخبرك.. دعني أخبرك أن كلامه كلام صواب وحقيقة.. إن شعبي لم يهزمه سيف ولا رمح إلا إذا كان مسلطاً بغضب الإله إلها.. وما رعب الإسرائيليين منك إلا لعلمه بأنه جلبو لعنة الإله عليهم وحل غضبهم فوق رؤوسهم... لقد استولى بهم العطش حتى قرروا ذبح أنعامهم ليشربوا دمها.. إنهم استحلوا قربان الهيكل وقرروا استهلاكها.. قربان لا يحل لهم حتى لمسها باليد.. لقد لعن شعبي من جديد ولا ينتظرون إلا اليوم الذي سيسلمك الرب مفاتيح مدينتهم وها أنا اليوم والآن أهبك هاته المفاتيح بعد أن علمت بما حصل وفررت لأسلط عذاب الرب عليهم على يديك... ها أنا ذا أمتلك أيها القائد.. أمتلك المؤمنة برب إسرائيل والتي تصلي له صباح مساء أطلب أن أبقى بجوارك هذه الأيام على أن تسمح لي بالخروج لسفح الجبل حتى أصلي وأناجي الرب الذي سيبعث لي بإشارة ويخبرني



بموعد حلول العذاب على شعبه.. حينها فقط يمكنك أن تمضي بجيشك ولن يمسك واحد منهم... حينها فقط ستظفر بهم... عندها سأمضي بمركبتك إلى وسط أورشليم.. ستسوق شعب الرب كالغنم بلا راع.. ستسوقهم دون أن تسمع نباح كلب واحد.. ستسوقهم وكأنك "تملكهم ... كل هذارأيته وأخبرني به الرب لذلك فقد أتيت لأحقق مشيئته

أني تكون امرأة بهذا الجمال والحكمة والفصاحة." تعجب المستشارون والقواد أما القائد "اليفانا فابتسم إعجاباً وفخرًا ثم وعدها: "إلهك فعل حسناً برسالك إلينا لتكون القوة بيدنا والهلاك لمن عصوا ملك الآشوريين... أما أنت أيتها العبرانية الجميلة فإن أتممت ما قلته الآن وتحقق، إلهك سيصير إلهي وستعيشين كل عمرك في رفاهية وترف بقصر ملك الآشوريين ". العظيم

أمر القائد بأن تستقر يهوديت بغرفة خزانته وأن يحضر لها ما لذ وطاب من أكل وخمر، فاعتراضت بأدب وعللت رفضها: "أشكر حسن صنيعك يا سليل الكرم والجود إلا أنني أمتنع عما لم يكن مسموحاً بأكله في ديني حتى لا أخطئ ولا يصفعي الرب لصلواتي.. لقد تزودت بما يكفيني وما هو مسموح به في شريعي

وماذا نحن فاعلون إن انقضى زادك؟ أني لذا البحث عما هو مسموح به في دينك ولا يوجد " بجيشنا واحد من العبرانيين؟" "قر علينا أيها القائد فإن أمتنا لن تنهي زادها إلا وقد تتحقق ما جئت من أجله... ما اطلبه هو أن تسمح لي بالخروج للصلوة "في جوف الليل لأنضرع وأنجي الرب إلهي

سمح لها القائد بالخروج للصلوة فكانت طيلة ثلاث ليال تخرج للنبع تغسل وتتغذى من سفح الجبل مكاناً للصلوة والتضرع.. صلت مطولاً لأن يرشدها الرب إلى طريق حتى تخلص شعبها.. مضت أيامها الثلاث بين الصلاة والتضرع وبين المكوث طاهرة في الخيمة لا تأكل من زادها إلا القليل كل مساء إلى أن حللت الليلة الرابعة... ليلة باركتها السماء فجعلتها دافئة تشرح النفس وتجعلها ميالة للسرور.. قرر فيها القائد إقامة حفل للمقربين من خدمه، لم يحضره أحد سوى أقرب المقربين له.. طربت أنفسهم بالعزف وامتلأت بطونهم بالأكل كما دندنت كؤوس الخمر في عقولهم... زال كل تكليف وتعرت النفس المخبأة تحت أردية الحرب... أمر القائد مخصياً من أمناء خيمته بأن يحضر العبرانية: "اذهب إذن واقنع ابنة العبرانيين بأن تأتي لمجلسنا، إنه لعيب وعار عند كل آشوري أن تكون أمامه امرأة بهذا الجمال ولا يظفر منها بشيء، إنها حتى للتسرخ منه وتشكك في رجولته.. اذهب وأحضرها



مضي العبد بخفة إلى حيث الأرملة المتعبدة. "أيتها الآمة الصالحة، أيتها الجميلة لا تستحيي وتعالي انضمي لمائدة سيدى القائد حتى تشاركيه كأس خمر وتطربي بمائدة السرور حتى تكون "لك مكانة بين بنات آشور

ومن أنا حتى أخالف رغبة سيدى. كل ما يرد يه مولاي فإني ساعية لتحقيقه.. كل ما يحبه "مولاي فإني سروري يكون بتحقيقه."

كل زينتها عليها ثم ارتدت ملابس سرورها وخرجت لملاقاة القائد بخيته بعد أن سبقتها وصيفتها.. كالملاك دخلت بل وكم عشتار تجلت.. أيقظت الشهوة الخامدة كنار تحت رماد في قلب اليافا.. راودته رغبة عارمة بمطارحتها الغرام.. مذ أن رأها والفكرة تلح عليه إلا أنها الآن اتقدت ولم يعد يستطيع كبحها

"اشري وشاركينا الفرح."

"أشرب عن طيب خاطر وتفرح نفسي لأنني في"

هذه المكانة العظيمة... عظمت نفسي أكثر من أي يوم في جميع حياتي"
أخذت مما حضرته وصيفتها التي سبقتها، أكلت وشربت في حضرته فانشرحت نفسه وطربت بهذا التقدم فزاد في شره للخمر وتدفقت الكؤوس متتالية.. شرب كما لم يشرب طيلة حياته.

ليل الليل واشتد ظلامه فبدأ للمقربين أنها الساعة المناسبة للانسحاب حتى يتركوا قائهم ينعم بالأنس مع ضيفته.. مضوا كلهم وبقي الخصي حتى تأكد من رحيل الجميل فأغلق الخيمة وأرسل حراستها حتى يتمتع سيده بالحرية المطلقة ويغزو العبرانية قبل أن يغزوا أرضها.. بقيت يهوديت وحدها بالمخدع.. أرسلت وصيفتها أن تبقى بمكانها وترقب، أما هي فتقدمت نحو السرير البيضاء ملائته والحرماء أردتيه.. كان القائد منهاكا بالخمر فاتكاً حيثما اتفق فوق سريره وسرحت عيناه غائبتان عن الوعي... واقفة أمام السرير بدموع تسيل أنها رأوا وقلب يهتز لأنما حل به زلزال، صلت يهوديت لإلهها: "أيها الرب أيدني في هذه الساعة وأعطي يداي القوة ل تقوم أورشليم ويرتفع ذكرك بها... أدر بنظرك ناحيتي وشد عضدي لأنها ساعة الانتقام من العدو يا إلهي"

تلت صلاتها أمام السرير ثم دنت من أحد أعمدته واستلت سيقا معلقا عليه... أمسكت شعر رأسها.. ر بما شعر بها وظن أنها تداعبه فارتخي سائر جسده واستعد للليلة من المتعة.. جرت شعره لكنه لم يحس.. همست "أيدي يا رب إسرائيل في هذه الساعة وانظر عملي..." ضربت



عنقه مرتين... توقف قرع الطبول في قلبه... سمع الرب نداءها فمد يدها بقوة مئة رجل... لم تجزع ولم تخش شيئا.. أحسست بالسيف وهو يخترق طبقات الجلد ليحز الحنجرة وتنفجر الدماء ملوثة كل البياض أسفلها.. للحظة فتح عينيه واستيقظ.. تململ وضرب بقدميه.. ضربات الأضاحية المقدمة أمام مذبح الرب.. ضربات النهاية والاستسلام.. لم يدر ما حل به.. حزت رأسه عن جسده... أمام المخدع كانت الوصيفة واقفة مستعدة لتلقي الرأس وجمعها كمن تجمع أواني الأكل... في نظراتها مزيج من المتعة والحدق.. مزيج من الهيبة والخوف... رأت الموت مرات عديدة لكنها لم تره أبدا بهذه الحمرة القانية وهذه النهاية المرعبة

خرجت الاثنين من الخيمة، كعادتهما وقت الصلاة، بعد أن حملتا الرأس ومعها رداء السرير الأحمر ومضتا نحو السفح ثم منه إلى الوادي الذي دارت حوله لتصلا أبواب المدينة وهم تصرخان: "افتحوا، افتحوا إن الرب معنا وقد أجرى قوته في بني إسرائيل... نجاهم وأنقذهم". كما يفعل دائمًا

فُتحت الأبواب وجاء شيخوخ المدينة كما التم أهلها الذي فقدوا الأمل في أن تعود الأرملة الورعة منتصرة.. كثر اللغط من حولها فصعدت مكاناً مرتفعاً وانتظرت حلول الصمت لتخرج الرأس من التوب... جفت الدماء حول الجيد لكن القطرات بقيت متلائمة حول قصبة الحنجرة... ابيضت سحنته إلا أن الخوف لم يختف من ملامحها... على ضوء المصاصي بدأ اصفراره أوضح وما كان أحد ليصدق أن هذا هو القائد الهمام الذي خضعت له كل الأقاليم... صرخ الشيخ الذي كان أهل المدينة يستضيفونه وخر مغشيا عليه بعد أن تملكه الرعب والوجل.. حينها تأكد الجميع إنما الرأس هي رأس اليفانا بعينه

"إنما أراد الرب أن يكون هلاك القوي على يدي امرأة... سبحوا الرب بالدفوف ورنموا للرب" على الصنوج.. عظموه أبد الدهر فالجبال تهتز من عظمته والصخور تذوب كشموع أمام وجهه.. هلوا للرب ومجدوه.. من يتقوه ويقدموا القرابين باسمه فهم أعز مخلوقاته والويل "لمن كفر به فالنار والدود مصيره... سبحوا للرب المبارك"

رددت الجالسة على المكتب النشيد وسمعت صوت الدفوف كما استنشقت رواح البخور والقرابين المحروقة باسم الرب... عادت من شرودها ورحلتها الطويلة بين ثنايا ذاكرتها العتيقة... قامت بعدها نحو الصوان حيث المرأة.. تطلعت فيها كأنما تتأكد أنها موجودة بهذا الزمان والمكان.. ابتسمت بحزن وفرح في نفس الوقت.. ابتسامة اشتياق للماضي.. ابتسامة تخلص من الماضي





Moroccan Writers ©